تجاه نمط مختلف يتمحور في تقديم تجربة اليهودي بوصفها تجربة انسانية، أي ليست غريبة عن كل ما يهمّ الانسان. بعبارة أخرى، تقديم هذه التجربة في سياق اجتماعي وتاريخي بدأ يتحقّق على أرض فلسطين.

ومعنى هذا، ان الجدال في ما اذا كان لهذا التجمّع الاستيطاني الحق في الوجود على هذه الأرض لم يعد مطروحاً للنقاش. وكذلك الجدال في حق الآخر الفلسطيني، أو العربي. ان ما يهتم به هذا الخطاب هو تأسيس نفسه على أرضية جديدة، هي أرضية المشاكل الطبيعية، أو الانسانية، التي يعاني، منها كأي خطاب مجتمع آخر.

ومن الخطأ، في قراءة دلالات هذه الارضية، اسقاط آليات التفكير الرغائبي عليها، مثل رؤية «الغبار» بدداً كما هو في ثقافتنا، ورؤية القلق علامة اعادة نظر جذرية، في الصهيونية. اننا نعتقد بأن دلالة الغبار والصراع والقلق والتساؤل عكس هذا تماماً. انها تنبىء بشعور الوصول الى مرحلة من النضج، الى درجة لم تعد فيها الأهداف القديمة، أو اقناع الآخر، أو الجدل معه، تشكّل قيداً أو مانعاً أمام طرح التمزّقات أو المعاناة الصهيونية بوصفها معاناة مجتمع ترك وراءه مشاكل الولادة، وبدأ يفكّر بمشاكل النمو وأعبائه.

هنا تستوي الشخصية المطروحة على العالم، شخصية الاسرائيلي المصطنعة أساساً وليس اليهودي، مع «الانسان» نفسه. ولا تعود غريبة، كما كانت في البداية؛ ولا تعود مفتقرة الى البدهيات الأساسية، أي الأرض والمجتمع والتاريخ. ولم يكن ممكناً الوصول الى هذه الارضية بتكرار تذكير القارىء بالفلسطيني، أو بالعربي، بل بالقطع مع هذه العلاقة، بصورة أو بأخرى، والاقامة على أرض علاقة جديدة بين اليهودي واليهودي، واليهودي ونفسه. وهذا هو معنى التجربة الشخصية التي تعنى بها الخطابات الصهيونية، وتتمحور فيها.

ان القناعة الغربية بوجود العرق اليهودي والشعب اليهودي، ولو على صعيد شعبي، قد تمّ تثبيتها ايديولوجياً بفعل التشبّع التوراتي قبل قيام الصهيونية بسنوات طويلة. وما كان نبوءات وأساطير تمّت ترجمته الى «صهيونية» في ظروف القرن العشرين وموازين القوى، ولم تبق الّا الخطوة الاخرى، وهي ان يبرز هذا الشعب وجوده كتجربة متميّزة ذات نكهة خاصة على الصعيد العسكري، والسياسي، والثقافي.

وقد تولّى الخطاب الأدبي الجزء الأكبر من هذه المهمة، في نطاق استكمال ما كان مجرّد أقاويل وادعاءات توراتية. وكما نعرف، فان هذه النوعية من الخطابات بحاجة الى الجانبين: القضية الروحية والقضية التقنية.

ويبدو لنا ان مركز قوة الخطاب الصهيوني هو في ما أهمله الخطاب العربي، أي في المضمون الانساني، والاجتماعي، لهذا الخطاب، وليس في اجادة العلاقات العامة واستغلال وسائل الاتصال الحديثة فقط.

هذا المضمون، بغض النظر عن كونه يتحدث عن واقع قام ضد التاريخ او الحقيقة الفلسطينية، يحتفظ باستقلالية هامّة: انه لا يطرح نفسه بالتلازم مع التاريخ والحقائق الاخرى التي تتعلّق بنا، بل بتاريخ وحقائق تتعلّق به، أو بغيره من الشعوب الغربية. انه خطاب يطمح الى اضاءة شخصية، والى تأكيد حضورها، وليس الى نفي الآخر الذي أصبح نفيه قضية ميتة بالنسبة الى هذا الخطاب،